|  |
| --- |
| **المحور الأول: التحـــول الديمـــقراطي: ضبط المفــــهوم وإشكاليــــة التعريف** |

**أ-الديمقــــــراطية بوصفـــــها نـــــظامًا وثقافة:**

إن الحديث عن الديمقراطية في حقل السياسة يثير **إشكالات معرفية ومنهجية محورية**، فالدارس للنظم السياسية والحكومات المقارنة يهتدي إلى **وجود زوايا مختلفة لمقاربة الظاهرة الديمقراطية**؛ فمن جهة تعتبر **نظاما** جاهزا ومتكاملا يضطلع فيه الشعب بحكم نفسه بنفسه – حسب التأصيل المفهومي اليوناني القديم – بطريقة غير مباشرة؛ أي عن طريق انتخابات ممثلين للشعب، ومن جهة ثانية، توصف بأنها **منهج في التعامل** داخل مجتمعات تعددية، **وطريقة في التوصل إلى إجماع to reach a consensus** تفضي إلى **إنضاج وعي مشترك**، وإلى بناء ثقافة حقوقية وقانونية وسياسية تتقاطع مع ثقافة القهر والإخضاع والإكراه.

**1/ الديمقراطية بوصفها نظامًا:**

بما أن التحول الديمقراطي يدل على تلك الفترة التي يقفز فيها النظام من حالة التسلط نحو الانفتاح، تتطلب الحاجة المعرفية تسليط الضوء على المقصود بالديمقراطية بدلالتها اللفظية والايبستيمولوجية، في سبيل الكشف عن ملامحها **باعتبارها نظاما سياسيا** من جهة، **وثقافة** تميز بنيان النظام والمجتمع معًا. **فمن الناحية اللغوية**، تتكون كلمة الديمقراطية –وهي يونانية الأصل- من مقطعين **Demos** أي **الشعب**، و**Kratos** بمعنى **الحكم**، وبالتالي تعني **حكم الشعب**.

يشيع الحديث عما إذا كانت الديمقراطية **منظومة القيم** أم **تطبيقا لنظام حكم** له قواعده وأصوله، والترويج لها في الغرب منذ نهاية الحرب الباردة أثار جدلا بين أنصار العالمية وتوحيد النمط الديمقراطي الغربي السائد وأنصار المطالبة بإقامة نظام حكم عادل، لا بأس أن يكون ديمقراطيا **على مستوى الإجراءات وقواعد العمل** ولكن مختلفا **على مستوى القيم والأفكار**، بحكم صعوبة إحداث التوافق بين الفكر الغربي الحر وغيره. وتسعى المجتمعات الحرة والواعية إلى تحقيق الديمقراطية بوصفها نظامًا يجسد إرادتها وتطلعاتها في العيش في ظل الحرية والرخاء والاحترام (الكرامة الإنسانية)، **فهي الفيصل بين الاستبداد والتسلط والتحرر والانفتاح**، ولهذا يميز علماء السياسة بين **الأنظمة المغلقة والمفتوحة** بناء على معيار **الديمقراطية**.

تشير الدراسات السياسية المقارنة إلى الديمقراطية بوصفها **أرقى نموذج سياسي عرفته البشرية**، كونها الأكثر اتباعا والأكثر عراقة في سياسات الدول والمجتمعات منذ الحضارات القديمة، وبالخصوص منذ أيام اليونان القديمة التي توصف بالعصر الذهبي للنظريات السياسية، ناهيك عن إجماع أصحابها–في العصر الحديث –**على أنها أفضل أنظمة الحكم بفضل ما تقدمه من قيم ومعايير مناسبة لاستقرار الحكومات ورخاء الأفراد**؛ فهي مجموعة محددة من **المعايير المقبولة على المستويين الرسمي والشعبي، وعلى الصعيدين الوطني والدولي/العالمي**:

أ-الحاكم يختاره الشعب عبر انتخابات حرة وعادلة ومرحلية

ب-حقوق التصويت عالمية

ج-سيادة القانون التي تكفل الحريات المدنية والسياسية، حيث يحظى المواطن بحقوقه وحرياته غير منقوصة وتحت حماية الدستور والمحاكم

د-وجود مجتمع مدني قوي ومستقل (منظمات غير حكومية وجماعات المصالح وحركات اجتماعية وقادة الرأي)

ه-المشاركة الحرة للمواطنين في العمليات السياسية

و-ترتيبات مؤسسية قائمة على سيادة القانون

يذهب **روبرت دال Robert Dahl** إلى أن النظام الديمقراطي نظام سياسي جوهره **عملية انتخابية تنافسية**، وله خصائص رئيسة ثلاث، وهي:

1/ **الاقتراع الواسع** لجميع المواطنين البالغين

2/ **انتخابات دورية وعادلة** مع فرصة حقيقية للتداول في اختيار القادة في سياق مستوى أعلى من المشاركة السياسية

3/ **احترام الحقوق المدنية والسياسية** التي تمكن جميع المواطنين من تحديد اختياراتهم بكل حرية، وذلك في ظل حرية التعبير والاجتماع وتكوين الجمعيات.

ويشترط دال **خمسة معايير ذات توجه عملياتي للديمقراطية**، باعتبارها طريقة عمل ضمن جمعية تطوعية حرة **voluntary association:**

**المشاركة الفعالة**: قبل أن تتبنى هذه الجمعية سياسة ما، يجب أن يكون لدى جميع أعضائها فرص متساوية وفعالة لعرض آرائهم حول ما يجب أن تكون عليه سياسة الجماعة على الأعضاء الآخرين.

**المساواة في حق التصويت**: حين يحين الوقت لاتخاذ قرار نهائي بشأن سياسة الجمعية، يجب أن يتساوى جميع الأعضاء في الفرص الممنوحة لهم للتصويت، ويجب اعتبار جميع الأصوات متساوية.

**التفهم المستنير**: يجب أن تفتح أمام كل عضو الفرص المتساوية والفعالة للاطلاع على السياسات البديلة ذات الصلة ونتائجها المحتملة.

**تنظيم جدول الأعمال**: يجب أن يمنح الأعضاء الفرصة الخاصة ليقرروا كيفية تنظيم جدول الأعمال، وتحديد مواده إذا أرادوا، وبذلك لا تغلق العملية الديمقراطية التي تتطلبها المعايير الثلاثة السابقة، فسياسات الجماعة منفتحة دائما على التغيير من قبل الأعضاء، إذا اختاروا ذلك.

**شمول البالغين**: يجب على جميع المقيمين الدائمين من البالغين، أو معظمهم، أن يكون لهم الحقوق الكاملة للمواطنين التي تتضمنها المعايير الأربعة الأولى.

يعتبر **جوزيف شومبيترJoseph Schumpeter** صاحب **التعريف الضيق للديمقراطية**، بحيث يعتبرها ليست إلا **آلية لاختيار القيادة السياسية**؛ فالمواطنون يعطون **فرصة للاختيار** من بين قادة سياسيين أنداد يتنافسون **للحصول على أصواتهم**، وما بين دورة انتخابية وأخرى، يتخذ رجال السياسة القرارات.

يستخدم **شومبتير (**وهو أكاديمي واقتصادي شهير**)** تعبير **المنهج الديمقراطي** للتعبير عن **الترتيب المؤسساتي** لأجل بلوغ قرارات سياسية من خلالها **يكسب الأفراد السلطة في اتخاذ القرار** عن طريق أدوات **الصراع التنافسي** من أجل الحصول على أصوات الشعب.

عندما تُعَرف الديمقراطية من حيث **المنافسة والمشاركة والحريات**، نجد أن سيرورة التحول الديمقراطي تحدث بطرق مختلفة. ويقد حدد **دال** طريقين يقودان إلى الديمقراطية؛ يركز أحدهما على **المنافسة**، بينما يركز الآخر على **المشاركة**، ويستتبع مما سبق أن الديمقراطية **نظام سياسي تنافسي** يضم عدة أحزاب (**التعددية الحزبية**) في ظل الاحترام العميق للآخرين (**الرأي الآخر**) واعتبار **المواطنين متساوون في الحقوق** وهم مصدر شرعية الحكم.

ما **الأنظمة** المعنية بالتحول إلى الديمقراطية؟

|  |  |
| --- | --- |
| **التسلطية والاستبدادية** | يستهدف التحول الديمقراطي القضاء على مظاهر التسلط بوصفه نمط من أنماط ممارسة السلطة دون الخضوع إلى أي قانون ودون اعتبار لإرادة الشعب، أين تتدنى المشاركة السياسية وتقيد الحريات الفردية، ويتصرف الحاكم المستبد بالحكم انطلاقا من أهوائه الخاصة. |
| **الشمولية وما بعد الشمولية** | يستهدف التحول الديمقراطي إنهاء نظام سياسي يمسك فيه الحزب الواحد السلطة بكاملها، مع رفض وجود أي معارضة، مع إلحاق جميع أفراد الشعب خلف الدولة (الولاء المطلق لها) واستعبادهم. |
| **الملكية والسلطنية** | يستهدف التحول الديمقراطي إزالة المعايير غير الديمقراطية في ممارسة السلطة؛ أي الوصول للحكم عن طريق الوراثة، دون محاسبة ودون مراعاة للحريات والمشاركة، مع انتفاء مبدأ حق اختيار الرئيس بحرية وشفافية. |
| **الاستعمارية وما بعد الاستعمارية** | يستهدف التحول الديمقراطي القضاء على قوة مهيمنة (استعمار) والسير نحو بناء مؤسسات دولة سيادية، بعيدا عن إكراهات خارجية. |
| **الثيوقراطية** | يستهدف التحول الديمقراطي إحداث قطيعة مع ممارسات دينية مخالفة لمعايير الديمقراطية على مستوى الاجراءات والقيم (الاعتراف بالتنوع). |

**2/الديمقراطية بوصـــــفها ثــــقافة:**

ننطلق في تحليل عنصر الثقافة والتحول الديمقراطي بناء على اعتبار الطريق نحو الديمقراطية لا يخلو من مجموعة من القيم والأفكار والقناعات غير التسلطية، والتي تزيد من إيمان المجتمعات والأفراد والحكومات معًا بإيجابية الديمقراطية لما تحويه من معايير إنسانية عالمية لا يمكن للدول أن تحقق الاستقرار والنظام دونها.

وفي هذا السياق، نستشهد ببعض المفكرين المؤيدين للدمقــــرطة بناء على مزاياها، فعلى سبيل المثال، يسلم **دياموند** بأن التحول الديمقراطي نتيجة البروز التدريجي **للثقافة الديمقراطية**، والذي ينطلق من **النخب** (المستوى النخبوي) منوها بالعلاقة الوطيدة بين الدمقرطة وتطور المجتمع المدني.

مع أن الديمقراطية نظام سياسي تنافسي يضم عدة أحزاب، فإنها تتطلب **عناصر معنوية** تجسد **بعدها الثقافي**؛ أي **الاحترام العميق للآخرين** مشاعرا وأفكارا ووجودا ومساواة الآخرين بالذات، مادام مفهومها الكلاسيكي تضمن تساوي المواطنين في الحقوق باعتبارهم مصدر شرعية الحكم. كما تتضمن معيار **التصالح مع الذات** والآخر باعتباره **طريقا نحو التسامح بين الجميع** بعيدا عن **نعرات التعصب والتطرف بين فئات المجتمع المختلفة**، **مما يقودنا إلى اعتبار الديمقراطية مجموعة قيم تغرس في بيئة المجتمع فيؤمن بها أفراده ويدافعون عنها ويطبقونها في حياتهم اليومية، تكاملا مع اعتنق النظام الحاكم لها في مؤسساته وسياساته.**

أما من ناحية مقاربة الديمقراطية من **زاوية حضارية**، فينظر إليها بعين الاختلاف والتميز عما تعتنقه **منظومة القيم الغربية الأحادية** التي لطالما كانت **مُنمِطَةً للقيم والقواعد السلوكية السياسية والاجتماعية**، وتتأسس بناء على ذلك ديمقراطيات غير مفروضة على مجتمعات تسعى للحفاظ على خصوصياتها، أي تعتنق مبادئ الحرية والانفتاح والمشاركة كقيم عالمية ملازمة للأنظمة غير السلطوية، ولكنها ترتبط بمحيطها الثقافي والحضاري معا.

وعلى حد تعبير المفكر العربي **برهان غليون**، **لابد أن تنبع الديمقراطية من وجدان الناس والشعور بالحاجة إليها، لا طلبها من أعلى؛** لأنها بهذا الشكل تصبح ديمقراطية لا تحاكي العامة وإنما تساير إرادات النخبة فقط (**الديمقراطية الفوقية**). **فالديمقراطية لا تهبط من السماء Democracy does not fall from the sky**، إنما هي ما يتمـــــــــــــخض عنه نضــــــــــــــــــــال أفــــــــــــــــــراد وجـــــــــــــــماعات من أجل:

\*التصدي ومقاومة **النمط الغربي الاستبدادي**

\*مواجهة **الفردانية** في الحكم والإدارة والثقافة

\*دعوة **الجماهير** للقيام بدور أكبر في إدارة شؤون بلادها

**ب- فرز المفاهيم المتصلة بالتـــحول: الانتــــقال/التـــغيير/الثــــورة/الإصــــــلاح/التحــــديث:**

تتداخل العديد من المصطلحات في حقل النظم السياسية و**الدمقرطة** في تعبيرها عن حالة التوجه إلى وضع جديد يختلف عما سبقه، **من الناحيتين الكمية والنوعية**، فأحيانا يطلق على هذه الحالة تعبير التحول الديمقراطي أو **عمـــلية** التحول **Democratic Transition/Process**، أو التــــحول نحو الديمقراطية **Transition Toward Democracy** شأنها في ذلك شأن كثير من المصطلحات السياسية الأخرى، ناهيك عن رواج مصطلح **الدمـــقرطة Democratization** على وزن **فوعـــــــــلة**، مشتقة من الديمقراطية؛ أي **الانتقال إليها بوصفها هدفًا منشودًا.**

يعتقد أن **الانتقال الديمقراطي** هو أحد مراحل عملية التحول الديمقراطي وأخطرها على الإطلاق، لأن حساسية المرحلة قد تؤدي إلى حدوث اخـــــتلالات في التوافق بين مؤسسات النظامين القـــــديم والجديد، إضافة إلى ارتباطه بما يعرف **بالمرحلة الانتقالية** حيث **يتعين قطع الطريق على القوى القديمة لإعادة فتح المجال أمام النظام الاستبدادي**، مما تفضي إلى فشل عملية تبني الديمقراطية، فهو يكشف حالة استبدال النظام من مرحلة سيئة إلى أخرى أفضل من حيث **البنى والقيم والعلاقات الايجابية** داخل النظام السياسي والاجتماعي ككل، ولهذا السبب، تشمل مسار التحول كل الجوانب السياسية والدستورية والقانونية والمجتمعية لإحداث الفروق المنشودة داخل النظام القائم.

**التمييز بين التحول ومفاهيم أخرى:**

يشيع في حقل العلوم الاجتماعية عموما والعلوم السياسية خصوصا، ميل الباحثين إلى **الاستخدام الانتقائي لمفردات التخصص حسب موقعها وسياقها الابستيمولوجي**، بعيدا عن سوء التأويل وفوضى نقل المصطلحات دون حساب لما ينجم عنها من التباس في الفهم، بدليل تطوير مجتمع العلماء **مسردا خاصا Glossary** بمفردات الحقل المعرفي موضوع البحث، وهو ما ينطبق على **حقل الديمقراطية والانتقال والتحول الديمقراطي**، وما يشوبه من خلط وتشويش إذا **استخدمت المصطلحات بالتبادل**.

‘Democratic Transition terms are not the same, and **they shouldn’t be used interchangeably’**.

**التحول / الانتقال:**

يُضبَطُ مفهوم الانتقال **Transition**معجميا في فكرة **التغير أو التحول** من وضع أو موضوع أو مكان إلى آخر، أي أنه **مرور** من **مرحلة أو وضع إلى آخرchange or passage from one state or stage to another**. أما في سيرورة التحولات الديمقراطية بالمعنى الابستيمولوجي المتخصص، فإنه ذلك **التغير التدريجي** الذي يأخذ **مسارا متواصلا من الإجراءات والجهود** (تغيير النظام التسلطي) ويتجه نحو **التحول** (أشمل ونهائي) بعد **ترسيخ الممارسة الديمقراطية** وتجذر ثقافتها على مستوى كلي (المجتمع)؛ أي أن الانتقال هو **القفزة** من حالة إلى أخرى، من **الاستبداد إلى المشاركة السياسية من قبل الشعب في المجتمع** (إحدى معايير الديمقراطية)، أما **التحول بشموليته** فيعني **الاستمرارية في الممارسة** ضمن مسار واضح إلى مزيد من المكاسب الديمقراطية. حيث تحدث تفاعلات اجتماعية عميقة بين مجموعة الفاعلين التي تنشد التغيير خارج النظام وبداخله أيضا، حتى يتم التوصل إلى دستور تحترمه وتستمر في العمل به، **وبعد نجاح الانتقال، تبدأ عملية التحول الديمقراطي باعتبارها مسارا طويلا ومستمرا ويحتاج إلى ترسيخا ديمقراطيا أكثر لما ناضلت المجتمعات من أجله.**

**التحول/ التغيير:**

يتضمن التغيير مجموعة الخطوات العملية والجادة التي تستهدف **تحسين الوضع القائم بغية بلوغ درجة أفضل في المستقبل،** ولكن لا يفضي بالضرورة إلى هدف **التحول الجذري** في بنية النظام السياسي على مستوى البنى والوظائف**،** فقد تشهد الدولة تغييرا دستوريا أو تغييرا في القيادة أو أحد رموز النظام أومرجعياته، **دون أن يتحقق التحول الشامل المنشود** (وهو هدف التحول الديمقراطي)**.** ويرتبط التغيير بالقيادة غير الديمقراطية (دكتاتورية) ويمتد إلى المجالات الأخرى (الدستور والبنى السياسية ونمط الاقتصاد والمؤسسة العسكرية.....) وهو **خطوة نحو التحول** ولكنه ليس الهدف النهائي لأنه **فعل جزئي** (برتبط بمجالات محددة).

**التحول /الثورة**:

الثورة عمل عنيف يقوم بها الشعب ضد الاستبداد أو الاستعمار، **تستهدف تغيير الأوضاع القائمة واستبدالها**، ولكن قد تفضي إلى الفشل كما لا تحدد مصير التحول الديمقراطي.

**التحول/ الإصلاح/ التحديث:**

الإصلاح يشير إلى **إحداث تعديلات غير جذرية** في الطبيعة السياسية والاجتماعية للدولة، **وهو غير ضامن للتحول الديمقراطي في مراحل لاحقة**، مع أنه يساعد على الانتقال الصحيح إلى نظام أفضل.

**أما التحديث،فهو يرتبط بالتنمية السياسية** على شاكلة الأنظمة الغربية التي حققت نجاحا ديمقراطيا على مستوى المؤسسات والعمليات ذات الصلة بالديمقراطية، وبخصوص علاقتها بفكرة التحول الديمقراطي، فهي تقوم على الأسس التي تسمح بإحداث تغيرات متعددة الأبعاد وفي مختلف الميادين، تؤدي إلى الانتقال من نظام سياسي **تقليدي** إلى نظام **حديث** (**يرتبط التقليد والحداثة بفكرة الديمقراطية نفسها**). كما تتخذ بعدا إيديولوجيا؛ أي قد لا تناسب كل الأنظمة الساعية إلى انتهاج نظام حكم أفضل، بحكم **صعوبة القدرة على التكيف مع الموروث الغربي** في الجانب السياسي.

**عرض التعاريف وضبط متغيــــرات التـــــــعريف الإجـــــرائي:**

تقتضي الضرورة الابستيمولوجية تناول الظاهرة في جوانبها المتعددة بالشكل الذي يضمن الإحاطة **بالمتغيرات الرئيسة** قصد وضع مفهوم دقيق يصلح أن يكون مرجعا للتحليل وإجراء بحوث مماثلة، وبالرجوع إلى ما كُتِبَ حول الموضوع، نتمكن من الاطلاع على محتويات كل تعريف وجمع متغيراتها، قصد التوصل إلى تعريف إجرائي واسع:

**تعريف دوورانسبليت وكوباك Doorenspleet, Kopecky:**

**الدمقرطة** هي الانتـــقال الذي يشير إلى **التحول** من نمــط من النظام السياسي إلى آخر، وعلى الصعيد الرسمي تعتبر **فـــــترة فاصــــــلة** بين انهيار النــــــظام القديم وتأسيــــس نظام جــــــديد.

يشير هذا التعريف إلى **متغير نظمي رسمي** (نمط نظام سياسي) يتحول عبر **عملية** تنتهي بإقامة **نظام جديد**، بحيث يسقط بناء سياسي غير ديمقراطي (نقطة الانطلاق) ويجري تشييد نظام ديمقراطي (نقطة الوصول).

**تعريف آدم بريزورزكيAdam Przeworzki:**

**الدمقرطة** هي **اتفاق مؤسساتي** له قواعد وحقوق وواجبات واضحة ترتبط **بعملية تحويل السلطة** من مجموعة الأشخاص إلى مجموعة القواعد المؤسساتية.

يشيرهذا التعريف إلى **مضمون** العملية التحولية؛ أي أنها **محصلة اتفاق outcome of an agreement** على **مستوى مؤسسات فاعلة** تحدد لاحقا معالم النظام الديمقراطي المنشود (تنتقل السلطة من **مجرد أفراد** إلى **قواعد** مؤسسات رسمية).

**تعريف لويس بول Lewis Paul:** هو مرحلة من **تغيير النظام**، تبدأ عند نقطة ما، عندما تبدأ الأنظمة الاستبدادية الشمولية بالانهيار، ووضع دستور، وهياكل ديمقراطية جديدة، وتعديل النخب السياسية لسلوكها بما يتفق مع قواعد الديمقراطية المقررة.

يشير هذا التعريف إلى **مرحلة تغيير النظام** بوصفها **نقطة الانطلاق** في عملية التحول الديمقراطي، وتستمد أهميتها من **القدرة على تجاوز أركان النظام السابق المعني بالتحول**، بحيث **يسقط ويحل محله قواعد وقيم جديدة**، وتنتهي العملية باعتناق النخبة السياسية تلك القيم **وتتغير سلوكياتها طبقا لذلك**.

**تعريف أودونال وشميترO’Donnell, Schmitter:**

هي **عملية** تطبيق قواعد وإجراءات المواطنة في المؤسسات السياسية المحكومة سابقا بمبادئ أخرى، أو توسيعها لتشمل الأفراد الذين كانوا محرومين سابقا من هذه الحقوق والواجبات، أو لتشمل قضايا ومؤسسات لم تكن تقع في نطاق مشاركة المواطنين في مرحلة سابقة.

**Democratization** refers to **the process** where the rules and procedures of citizenship are either applied to political institutions, previously governed by other principles or are expanded to include persons not previously allowed such rights and obligations, or extended to cover issues and institutions not previously subject to citizen participation.

يشير هذا التعريف إلى **اعتماد مبادئ الديمقراطية** (المواطنة والتمكين الحقوقي للأفراد) بوصفه متغير رئيس للتعريف، وبالتالي يصبح التحول إلى الديمقراطية نتيجة مباشرة وغير مباشرة من انقسامات مهمة في إطار النظام الاستبدادي نفسه، مع انشقاقات متذبذبة بين المتشددين والمعتدلين، وتثبيت القواعد الرسمية للديمقراطية.

**تعريف حسين إبراهيم:**

هو مرحلة يتم من خلالها تفكيك النظام غير الديمقراطي القديم، وانهياره، وبناء نظام ديمقراطي جديد، حيث تشمل عملية التحول عناصر النظام السياسي، مثل البنية الدستورية، والقانونية، والمؤسسات، والعمليات السياسية، فضلا عن ذلك فقد تشهد العملية صراعات، ومساومات، وعمليات تفاوض بين مراكز القوى داخل الدول. (يركز هذا التعريف على على **مراحل** التحول **وعناصره وديناميته وتفاعلات فاعليه**).

**تعريف دياموند :Diamond**

الدمقرطة هي **مسار** تطبيق القواعد والإجراءات الديمقراطية داخل نظام سياسي غير ديمقراطي إلى غاية إصلاح عناصره التأسيسية والبنيوية والإجرائية، فهو يشمل العملية التي تنطلق من **غياب الديمقراطية**؛ أي **الاستبداد** إلى غاية تحقق **الديمقراطية الليبرالية المكتملة**.

يشير هذا التعريف إلى **الطابع الإجرائي** لعملية التحول **وغايتها النهائية** (قواعد وإجراءات وغاية).

**ج- علم التـــــــحول Transitology:**

هو المجال البحثي الذي يُعنَى **بدراسة** مسار التحول من نظام سياسي إلى آخر، وبرز مع حدوث الموجة الثالثة من التحول الديمقراطي التي شهدتها دول ما بعد العهد الشيوعي، خاصة في فترة السبعينيات مع نشر **دونكوارتروستو** لمقاله الشهير (التحول إلى الديمقراطية: نحو نموذج دينامي) الذي تناول أهمية النخب السياسية في إحداث التحول خلافا للمقاربة البنيوية التقليدية، وأغلب الكتابات تصطلح عليه **علم الانتقال**، حسب التركيب اللغوي **Transition + Logy**= **علم الانتقال الديمقراطي**، وتمييزا عن خبرة التحول العملية (الممارسة). فهو حقل أكاديمي يدرس الفترة الزمنية بين نظام سياسي وآخر؛ أي من الأنظمة الاستبدادية إلى الأنظمة الديمقراطية، ويقاس فيها مدى نجاح أو فشل تجارب الدمقرطة باعتماد معايير الديمقراطية الدستورية الليبرالية والتحرير الاقتصادي، ليصنف بوصفه فرعا في **السياسة المقارنة.**

يستخدم فريقا آخر من الباحثين عبارة نظرية التحول الديمقراطي **DemocratizationTheory** لوصف **الحقل المعرفي** الذي يدرس الانتقال من الأنظمة غير الديمقراطية إلى حكومات ديمقراطية، بما يحويه من نظريات وأفكار وحجج تهدف إلى تحديد أهم العوامل المؤثرة على عملية التحول من التسلط إلى الديمقراطية، ومن بينهم دورنسبليت **Doorenspleet** و **Gunther** و **Diamond**.

ما أبرز **الطروحات المعرفية** في علم التحول في القرن 21 ؟

تعالج أدبيات التحول الديمقراطي على المستوى الابستيمولوجي إشكالات دقيقة وليدة تجارب عملية لتطبيق الديمقراطية في بلدان عانت من التسلط والاستبداد، في مناطق مختلفة من العالم، وقد استطاع الباحثون تناولها على أساس انها **متغيرات تفسيرية للظاهرة التحولية**، بحيث تشمل أغلب جوانب عملية التحول من بدايتها حتى نهايتها مع ترسيخ الثقافة الديمقراطية ومبادئها الفعلية. وفي ما يأتي أبرز خصائصها:

**1-تحدث عملية التحول الديمقراطي في أي سياق بنيوي**: فهي خيار صريح يتبناه طرف حاسم في المجتمع السياسي للمطالبة بالانتقال إلى الديمقراطية والتجند لها، في ظل تعدد مصادر الرقابةالمؤسساتية، وهنا تطرح مسألة **أي وسائل يتم اختيارها لتحقيق الهدف الديمقراطي**.

**2**-**يحدث التحول الديمقراطي على شكل موجات:**فهو يأخذ شكل **دورات "مراحل**" باعتبارها مؤشرا على الفترات التي تقود إلى المطالبة بإقامة الديمقراطية، والكلمة نفسها مأخوذة من كتاب **صمويل هنتغتون** المعنون **بالموجة الثالثة**1993، فالموجة تدل على أن الديمقراطية تتبع منطق **التقدم العالمي**؛ أي النهوض بها على الصعيد العالمي **global advance of democracy**.

**3-يستغرق مسار التحول وقتا أطول:** فهو عملية ذات محصلة **لا يمكن توقعها**، بحيث تتعرض الممارسة الديمقراطية إلى **الاختبار** من حيث (السلوك السياسي والبنى المؤسساتية والالتزام بالنتائج)، ولهذا السبب يمثل التحول الديمقراطي **مشروعا** مشتركا لنقل **النظام الفوضوي العنيف** إلى **نظام سلمي تحكمه القوانين**.

**4-لا يوجد سبيل واحد نحو الديمقراطية**: بل توجد متطلبات وديناميات ضرورية، وعلى رأسها الشمول (الإشراك) وإعادة التوزيع، **فقيم الديمقراطية متشابهة ولكن التعبير عنها يختلف باختلاف السياقات القائمة**، فالبعض يناضل من أجل تحقيق الديمقراطية بدافع **العدالة**، والآخر تحركه **المساواة والتحرر**، بينما تدفع أطرافا أخرى مبررات **الكرامة**.

**5-يمثل التحول لحظة تأسيسية وحركة تقدم**: فهذا المسار الثنائي المترابط متأصل في القطيعة عن الطرق السابقة للسياسة والاعتناق التدريجي للطرق الجديدة (من التسلط إلى التحرر). إذا كانت الديمقراطية تتأسس على ممارسة عناصرها (احترام الحريات وتنفيذ المسؤولية المدنية والتسامح مع الاختلاف ومشاركة الواجبات المجتمعية)، فذلك يستتبع بناءالدمقرطة على التنفيذ الواعي لالتزاماتها المتعددة.

**6-التحول عملية قابلة للانعكاس (يمكن التراجع عنها):** تعتبر الشرعية الديمقراطية عملية مركبة مع **احتمال حدوث انتكاس سلطوي** في مرحلة معينة، لأن الانظمة يمكن أن يكون هدفها وراء الدمقرطة استباق الأزمات ومحاولة الظهور بمظهر المحافظ على النظام عبر الانتقال المضبوط والمراقب الذي يوحي بالانفتاح، وهو ما يفضي لاحقا إلى إقامة **ديمقراطية شكلية (الواجهة) فقط**، ويؤدي ذلك إلى شيوع سلوكيات غير ديمقراطية تؤدي إلى **تقهقر النظام الديمقراطي** وتهديد ثوابته.

**7-التحول ظاهرة صراعية في جوهرها**: وقد يؤدي إلى **العنف**، خاصة إذا كانت وراءه أطراف تعمل على ورقة الهوية، فيؤدي ذلك إلى بروز **معضلة أمنية** (الفعل ورد الفعل والخوف المتبادل في المجتمع الذي يشهد تحولا وانتقالا)، وهنا تبرز الصراعات الموجودة مسبقا وتأخذ أشكالا جديدة، كما **ترتفع أصوات الفئات المهمشةوالمضطهدة للتعبير عن نفسها والمطالبة بالتمكين والمكانة**، خاصة إذا كانت عملية التحول فوضوية ومتعددة الجوانب، **فالدولة** بوصفها المحتكر الرسمي والشرعي للعنف، **تتعرض إلى فقدان الشرعية** ويصبح أمامها رهان **إعادة تأسيسها على أسس جديدة** (التمثيل السياسي).

**8-يشغل الاقتصاد مكانة محورية خلال عملية التحول:** فالضائقة الاقتصادية والسخط الشعبي غالبا ما يسبقان انهيار الأنظمة الاوتوقراطية، والاستمرار في التغير السياسي تزامنا مع الاصلاح الاقتصادي يخلق عملية ثنائية يمكن أن يؤدي إلى **تعارض انتقالي (مشكلة التوافق والتزامن) transitional incompatibility.**

**9-التحول مسار شامل**: وشموليته لها أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية في المحيط الذي يحدث فيه، ولهذا يعتبر التحول الناجح ذلك الذي **يتسع ليحقق الثقافة الديمقراطية**، ومع مرور الوقت، **يتحقق التعود على القواعد الجديدة للعبة السياسية**، كما أن العمليات الدستورية تمثل عنصرا مهما في هذا النشاط من خلال إقامة دستور يمثل **عقدا اجتماعيا جديدا** أكثر من مجرد اعتباره نصوص جامدة.

**10-التحول يحدث في سلسلة من المراحل**: وهو ما يجعله **عملية تطورية تراكمية** تنمو كلما زادت مكتسبات الممارسة الديمقراطية أكثر فأكثر مع مرور الوقت، من حيث رفع نسبة المشاركة السياسية وتعزيز المواطنة واحترام الرأي الآخر وانفتاح النخب والمجتمع المدني، في سبيل تحقيق **الاجماع والتوافق** المطلوب في اللعبة الديمقراطية، ومن ثمة الوصول إلى **مرحلة الترسيخ** التي تصبح فيها الديمقراطية ثقافة عيش يشترك فيها الجميع.